أليس منكم رجل رشيد؟!

الاهتداء حول ما أشيع حديثا فى مسئلة اختلاط الرجال بالنساء

إن من أخطر ما يصاب به العالم في دينه الميوعة في تفكيره، وذلك نتيجة ما يعانيه في نفسه من عقدة النقص ومحاولة مسايرة الزمن ومواكبته في كل خطوة من خطوات حياته. ومسايرة الزمن داء عضال تنقض عرى دين المرء عروة عروة حتى تستأصله. ومعلوم أن هذه البلبلة في الفكر لم تظهر طفرة بل ما إن فشلت الغرب في غزو أمتنا بالسلاح حتى جعلت تغزوها في فكرها ومبادئها بخطة مدبرة محكمة فنجحت حتى بدأ تدب سمومها في جسد الأمة إلى أن وصل إلى أعز عضوها :العلماء.

فلما سقط صنف منهم في قبضة الغرب وانبهروا بها وأخذوا يقيسون الأمور بمقياسها ضلوا وأضلوا ثم جعلت تطفو على الساحة عقب ذلك "قراءات جديدة" للقرآن والسنة، المقصود الأعظم منها تبرير مواقف اتخذها هؤلاء العلماء والتي فرضها عليهم الإندماج والذوبان في فكر الغرب وتقاليده. وارتكبوا في تحقيق ذلك كل تأويل وتحريف. وكانت لهم إذا كتبوا وسائل وحيل يستغلونها مما تعلموها من أسيادهم في الغرب حتى إن هؤلاء فاقوا من تلقوا منهم ونفذوا و نجزوا ما فشل فيه اعداء الإسلام وحاولوه منذ مائة سنة.

ومن جديد ما ظهر من هذا اللون ورقة حمل أصحابها على تسطيرها حاجة في نفوسهم لم يخفوها ولا هي خافية على ذي عينين من الناس، حملهم عليها تبرير ما ابتدعوه مقتبسين إياه من الغرب. وذلك كسرهم الحواجز بين الرجل والمرأة في المعاملة. ذهبوا في مواجهة المرأة والجلوس إليها وتحديق النظر إليها والإنبساط إليها مذاهب غريبة عن الدين الإسلامي بحجة التعليم والتثقيف.

ولا يهمني الآن مناقشة ما تعلقوا بها، فسيأتيهم ما يبدد الغبار الذي أثاروها من الشبهات، على أن الأمر ناشيء من شهوة تمكنت أكثر من شبهة أقلقت. وهل أكثر ما تعانيه أفراد الأمة إلا من مغبات شهوات غريزية لبست في ثياب شبهات علمية؟ والذي يهمني هنا ذكر بعض الوسائل التي يستعملونها في ترويج أفكارهم والتنبيه على بعض ما لزم التنبيه عليه.

- **قطعنة الشريعة**

هذه شنشنة أعرفها من أخزم...من أكثر ما يحلو لهذا الفريق التأكيد عليه التفرقة بين القطعي والظني من الأدلة ثم حصر الإحتجاج بالقطعي منها وأن يضرب بالظني عرض الحائط،

واثقين في ذلك على أنفسهم، جامدين عند الرسوم، غافلين عن منزلة القرائن وموضعها عند العلماء .ولم يدروا أن من لم يحسن فهم كلام العلماء ولم يتقن التصرف في العلوم صارت المصطلحات والتقيسمات في حقه بمثابة كلمات فضفاضة، يفرغها عن معانيها ثم يشحنها بما تملي عليه هواه.

وللقوم محاولات عديدة في استغلال التقسيمات والمصطلحات كما حاولوا في العهد القريب أن يتمسكوا بتقسيم السنن إلى سنن هدى وسنن زوائد للتخلص عن حكم إعفاء اللحية. وكما تمسك أيضاً بعض الزائغين في مصر بتقسيم الوقف إلى أهلي وخيري متذرعين بذلك لهدم أصل الوقف. ومن هذا الباب ما ارتكبه أصحاب هذه الورقة في بدايتها إذ نفوا أن يكون للفظ الإختلاط حد واضح. والحق أنه لا يؤثر ذلك في شيء، فإن العبرة للمعاني لا للألفاظ. وإن العبارات تسوى على المعاني ولا تسوى هي على العبارات. وهذا يعني أن المعنى ما دام ثابتا معلوم حكمه في الشرع فلك أن تسميه بعد ذلك ما شئت.

- **التفريق بين الشريعة والفقه**

وهذا امتداد لما قبله: لم يفهموا وظيفة الفقيه المجتهد الذي فوض إليه كشف ما في النصوص، ففصلوا عمليته عنها و عدوا ما ثبت في القرآن والسنة شريعة مقدسة وما صدر عن فقيه مجرد رأي بشر. وفي هذا تخليط ومغالطة لا تخفى على صغار الطلبة، فقد قرر العلماء بما لا مزيد عليه أن الفقه من الشريعة والدين، على أنه إن أعوز أصحاب الورقة الرجوع إلى المصادر للنظر في كلام العلماء فيكون في متناولهم كتاب الشيخ محمد عوامة أثر الحديث الشريف الذي ضمنه فصلا نفيسا في بيان هذا المعنى، وإن كان قد حاول أصحاب هذه الورقة أن يسيء إلى سمعة الشيخ وغيره من العلماء وكأن لسان حالهم يقول: إذا أسقطتمونا فليسقط معنا من تعدونه كبارا لكم فنقول لم يسئ هولاء إلا الى أنفسهم!

و متى ما عهدت الأمة يستمد حكما من أحكام الشرع من فعل صدر عن فرد – سوى النبي صلى الله عليه وسلم و صحابته – من أفرادها مهما علا قدره عندها؟ وما أبعد الفرق بين من موقفه في هذا الأمر صريح مبين في كلامه حتى يتلمس له العذر فيما يترائ مخالفا لذلك بالنظر في الظروف الخاصة بذلك. أقول، ما أبعد الفرق بين هذا وبين من اتخذ موقفا ثم ناضل عنه وراح يقرر ذلك ويؤصل له. ولا ينبغي أن يتجوه علينا أحد فيقول نجعل هذا من باب 'عمل العالم إذا خالف روايته يعد جرحا له' لأنهم من هذا الباب أتوا، وهو سوء فهمهم و تصرفهم في العلم وقواعده وعدم وضع الأشياء في مواضعها.

- **دعوى الموضوعية**

يعدون التصلب في الدين تحيزا و يزعمون أنهم يجردون النظر إلى الحقائق من غير سابق خلفية ومن غير تأثر بأفكار ترسخت في القلب. ومتى كان في وسع الإنسان أن يتجرد عن كل شيء إلا إذا جن والتحق بغير العقلاء؟ والحقيقة أن تشرب المنهج الإسلامي الثابت المتقرر – الذي يستقى من علم أصول الفقه و فهم أرباب الشريعة له تنظيرا وتطبيقا – عبر القرون من عهد النبوة إلى زماننا هذا مطلوب أولي بل واجب على من تصدى للكلام في الدين. أما من أفرغ إناؤه وتخلى عن مبادئ دينه فيتلون بتلون ما يصب فيه من مناهج وأفكار منحرفة.

وكيف يكونون موضوعيين وهم حين كتبوا إنما كتبوا لتمشية موقفهم من النظر إلى المرأة والجلوس إليها؟

- **مقاصد الشريعة**

لم تكن ما يسمى اليوم بالمقاصد على طول تاريخ الفقه الاسلامي إلا ركنا ركينا يتخلل عملية كل فقيه، يراعيها في نظام نظره أتم نظر وأوفاه. فلما اجتثت من موضعها وخرجت عن النظام المعتبر المقرر عند العلماء ونادى بإعماله كل من هب ودب ممن لم يعرف مآخذها وشروطها ذهبوا بها مذهب الإباحيين، مخالفين في ذلك صرائح النصوص.

و كأنه كان من جنس الجزاء المعنوي أن هذه الورقة لما تظاهرت بفهم"روح العصر" و "إعمال المقاصد" عوملت بنقيض قصدها ووقعت في الظاهرية البحتة. فإنها تجاهلت فهم طبيعة الإنسان ونفسانيته، وأساءت فهم الواقع وما يجري من فتن ودواهي. أخبرونا يا قوم: هل زادت نسبة الطلاق عند المسلمين أم نقصت؟ هل زادت الأخدان التي يتخذها كل جنس من الآخر بحجة الصداقة البريئة (platonic love) أم لا؟ وكم رأينا هذا الخدين ينقلب زوجا بعد أن حملت من نطفته صديقته البريئة هذه.

ثم تعجب من ظاهريتهم حيث جعلوا مناط جواز النظر إلى المرأة مانع الخلوة وامتناع الناظر من غشيانها حشمة من الجمع الذي يحيط به (والورقة مليئت بثل هذا التخليط وتجاوز أحكام وكلام طويل الذيل للفقهاء من جميع المذاهب إلى اجتهادات فردية غريبة) كأن المرء يباح له كل شيء إلا أن يقع عليها! كيف غاب عنهم مفهوم زنا العين وزنا القلب؟ وكيف

تغافلوا عما تحدثه النظرة الخاطفة إلى امرأة أجنبية فضلا عن معاودة النظر إليها وتكرار ذلك مرارا؟!

وكيف ألغوا قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لجرير رضي الله عنهو"اصرف بصرك..."، وقوله صلى الله عليه وسلم "فأن لك الأولى وليست لك الآخِرةُ"؟ فلم يبق لهما معنى عندهم - والعياذ بالله- وقد حدثنا التاريخ بما فعلته النظر من الأفاعيل. يقول الأدفوي - أحد المؤرخين من القرن الثامن - وقد حدثتني إمرأة وكانت قد كبرت وحجت وحسن حالها أن أباها كان يعشقها وتعشقه وحصل بينها وبينه الفعل زمانا طويلا وكذلك سمعنا من افتتن بأخته وعمته وخالته وربيبته وحماته. والتاريخ يعيد نفسه.

فلعيتبر أولو الألباب وليعلموا أن من رام اقتباس الأحكام من موافقات الشاطبي قبل الرسوخ في الفقه وأصوله زلت قدمه و لم يصدر منه إلا المخالفات. وكيف يحدث نفسه بالرسوخ من غلب عليه منهج الغرب في الدندنة حول تطورات العلوم وتفسلسفات أخرى دون الدخول في صلب العلم وضبط مسائله؟

- **لا تقاس الملائكة بالحدادين**

وماذا عسى أن يقول الواحد عن تمسكهم البارد بها لفقوه من العصر الذهبي عصر الصحابة رضي الله عنهم جميعاً – أطهر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأعلاهم عند مليكهم قدرا – فلم يسع هؤلاء ما وسعهم. وهل يعقل هذا إلا على 'مبدأ التقدم' الغربي الذي يرى كل عصر هو فيه أعلى وأسمى مما سبقه من العصور فيؤله المعاصر وإن كان زنديقا و يسقط أجداده وإن استفاد منه علما وحياة. في حين أن ديننا الحنيف يقول أنه لا يأتي زمان إلا كان شرا مما قبله وكلما بعدنا عن نور مشكاة النبوة اقتربنا إلى الفتنة والفساد أكثر وأكثر، لكن كأن هؤلاء خُصوا عن عموم قوله تعالى ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ واستحقوا الرحمة بها جددوا من طرق الإجتهاد.

يقول الإمام ابن الجوزي ﵀: **متى كان الطبع سليما فالشهوة قائمة والتحريم ملازم فمن ادعى أنه لا يشتهي فهو كذاب فلو قدرنا صدقه كان بهيمة لا آدميا!**

- **نذير شؤم**

و من كان له بقية من الحياء يتركها الآن من أجل هذه الورقة و يباشر عمله مريح البال فإن كلمته أسكتك و أحالك على هذه. وهذه البضاعة المزجاة لا تروج إلا على من ألف هذه

الطرق في معاملة النساء فلم يحترمها ولا احترم نفسه. وقد رأينا من قرظ للورقة ما بين واعظ يصفق له الرجال والنساء أو عالم مفتون بالشهرة لا يفتأ يرفع الصور الفوتوغرافية لنفسه مع مشايخه كلما سنحت له الفرصة يستميل بذلك الأغرار من أتباعه.

وليت هؤلاء القوم اعتبروا بالآخرين واسفتادوا من تجربة الأيام وقد أرتنا كل غريب. وكم فزع الناس يوم تناهى إلى سمعهم خبر"أستاذ" للبنات متزوج ذي عيال سعى وراء إحدى الطالبات ليتخذها 'زوجة ثانية' على عدم رضا أولياؤها ورغم مناصحة الخبراء خلاف ذلك. وانتهى بهما المطاف إلى الفراق والرجوع إلى الحالة الأولى. ومثل هذا وإن حسنت توبته فما الذي يؤمننا؟ فلماذا نعرض الشباب والشابات للوقوع صخية النظر ونخرب عليهم دينهم وقد حصحص الحق و ظهرت لنا – ظهور الشمس – المفاسد المترتبة على ذلك؟

ومن جملة البلايا التي جرها علينا هذا التساهل في دين الله تعالى أن ظهرت عندنا طريقة أثيمة لإقراء النساء القرآن حيث تجد المقرئ الشاب يقرئ الشابات ويطالبهن بالسفور. كأن مبدأ المساواة سول له أن يقابل المرأة وجها لوجه حتى يمعن النظر إلى شفتيها عند تحريكها لهما عند القراءة عليه بحجة أنه يصحح مخارج حروفها.

واستمع إلى ما يحكيه الشيخ علي الطنطاوي :

"ولست أكره مدارس البنات..مدارس البنات في الشام قديمة..أتدرون كيف كان الإمتحان؟ كان الفاحصون من الرجال إذ لم يكن في الشام يومئذ من المتعلمات من يمتحن الطالبات، نصبوا ستارة قعدت وراءها التلميذة ومعلماها وأمامها لجنة الإمتحان.. ثم أخذ الطريق ينحدر والمصائب تتوالى..."

و قال أيضاً يحكي تخطيط العدو ضد أمتنا:

"إن للأعراض لصوصا كما أن للأموال لصوصا..وهم يقومون دائما حول بناتنا..ففكروا وقدروا واستوحوا شياطينهم فوصلوا إلى الرأي: وهو أن يدخلوا علينا من طريق المدارس. فكيف دخلوا من طريق المدارس؟.. بدأوا بإدخال المدرسين من الرجال على البنات بحجة فقد المدرسات القادرات."

وقد سرد هنا في كتابه 'الذكريات' فصولا من تاريخ كيدهم ودخولهم من هذا الباب بما يتعين الوقوف عليه.

- **كلمة في منهج التفقه عند هؤلاء**

من الغريب أنا نجد اليوم كتلة من الطلاب ممن تخرجوا من مدارس عريقة - ذات مناهج سديدة ثابتة على مر التاريخ على طريقة المذاهب الأربعة - نجد هذه الكتلة انحازوا إلى قوم من السلفية الجدد. قوم تحرروا من الأغلال التي كانت عليهم - على زعمهم - ثم انفتحوا على تراث أئمتنا من المتكلمين والفقهاء والأصوليين لكن بغير لجام وسابق اهتمام، فما أحسنوا فيه: فمِن فُتات موائد علمائنا السابقين، وما أتوا به مشوها: فمن جراء أصلهم المشين.

وليت هؤلاء الطلاب - إذا انصرفوا إلى العلم بعد التخرج - رجعوا إلى العلوم التي كانت تلقى عليهم فدارسوها وأوعبوها على ضوء المنهج الموروث - كما كان ينبغي لهم أول مرة - لتنمو فيهم المناعة العلمية ولا يتجرؤوا على تخظئة من استفاد منهم .ولا يكونوا كما قال الشاعر.. : أعلمه الرماية كل يوم..فلما استد ساعده رماني..

وإنك عند رصد أسباب هذه الظاهرة لتجد أن هذه الكتلة تجمعهم خصلتان بارزتان وهما عدم تمكنهم من علم الفقه وعلمي الأصول وحب الإستقلال بدون مرشد في العلم. ولك أن تضيف إلى ذلك بالنسبة إلى بعضهم حب الظهور أمام الناس أو حقد يحملها في نفسه على بعض من تخرج على يديه. فإذا تخرج مثل هؤلاء جعلوا يرقعون نقصهم في العلوم بالالتحاق بالجامعات الغربية و الإنغماس في كتب الجدد من السلفية وذلك لما يجدون من الأنس بما رأوه في المدرسة وما يطرح عليهم في كتابات السلفية من منقولات الأئمة.

ثم إنه لا يخلو بعض هؤلاء الطلاب عن فطنة وذكاء. لكن الأيام قد كشفت لنا ما يصنعه الذكاء بلا إرشاد أستاذ خبير ولا التزام لخط الجماهير. فرحم الله البلادة مع التقوى كما يقول الحافظ الذهبي.

ويجب على الذي يريد معالجة المسائل العويصة بضرب من الإجتهاد أن يعلم أن الإجتهاد في الإسلام صعب المنال، لا يتهيأ إلا لأفراد قلائل ممن اكتملت فيهم آلاته. فليتهيب الخوض في ذلك من لم يتأهل لذلك وليترك الميدان لفرسانه.

وأما من أبصر قصده وعرف قدره فأقل ما يلزمه الإطلاع الواسع على كتب فقهاء الأمة على ممر القرون والدربة على مسالكهم ومداركهم.

وبدأ يجتمع حول هذه الكتلة جماعة من ضعفاء الطلاب يسمعون لهم ويصدرون عن إشاراتهم. **ولقد حان الأوان أن يقوم أولو الأمر ويتداركوا هذا الوضع قبل أن يستشري الفساد ويعم النسل والبلاد .والله تعالى يهدينا ويلهمنا طريق الرشاد.**

محمد يوسف